الشّرط، وهاهوذا يقـول لصهره: هذا الّذي قلت بأنّك تزوّجني إحـدى ابنتيك على أن أكون أجيـرك ثماني سنوات أو عشـر سنوات واجبٌ وشرطٌ بيني وبينك، على كلّ واحـدٍ منّا الوفاء به. أيّ الأجلين قـضيت وأيّ المدّتين المضـروبتين أمضـيت، الثّماني السّنوات أو العشر، فليس لك أن تعتدي عليّ فتطلب منّي أكثر من ذلك. والله تعالى على مايقول كلّ واحدٍ منّا شهيدٌ وحفيظ.

(٣)

« موسى عليه السّلام بعد الرّسالة »

الآيات (٢٩-٤٣)

﴿ فَلَمَّا قَضَىٰ مُوسَى ٱلْأَجَلَ وَسَارَ بِأَهْلِهِۦٓ ءَانَسَ مِن جَانِبِ ٱلطُّورِ نَارًا قَالَ لِأَهْلِهِ ٱمْكُثُوٓا۟ إِنِّىٓ ءَانَسْتُ نَارًا لَّعَلِّىٓ ءَاتِيكُم مِّنْهَا بِخَبَرٍ أَوْ جَذْوَةٍ مِّنَ ٱلنَّارِ لَعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ ﴿٢٩﴾

فلمّا قضى موسى الأجل : الأجل المدّة المضروبة للشّيء(١) وقد عرفنا أنّ موسى عليّه السّلام قد وفّى صهره أتمّ الأجلين وأكملهما وهو عشر سنوات(٢).

آنس : أبصر وأحسّ(٣).

من جانب الطّور : الطّور اسم جبل مخصوص في شبه جزيرة سيناء(٤).

أو جذوةٍ من النّار : شعلةٍ من النّار(٥) وعودٍ من الحطب فيه نار(٦).

لعلّكم تصطلون : تستدفئون. والطّاء بدل من تاء الافتعال من صَلِي بالنّار بكسر اللّام وفتحها(٧).

وفي كلٌّ من الشّيخ وموسى عليه السّلام لصاحبه، فالشّيخ الجليل زوّج موسى عليه السّلام إحدى ابنتيه وكان بفضل الله تعالى من الصّالحين، وموسى عليه السّلام كان نعم الزّوج ودفع مهر زوجه بالتّمام والكمال، عشر سنوات من زهرة شبابه. ما أغلى المرأة الصّالحة وأحرى الزّوجة الصّالحة بأن يُدْفع لها كلٌّ ما

---

(١) مفردات الرّاغب الأصفهاني : «أجل» ١/ ١٣.

(٢) انظر تفسير الطّبري ٢٠/ ٤٣

(٣) تفسير الطّبري ٢٠/ ٤٤.

(٤) انظرمفردات الرّاغب الأصفهاني : «طور» ٢/ ٤٠٣.

(٥) تفسير الطّبري ٢٠/ ٤٥.

(٦) تفسير الطّبري ٢٠/ ٤٥.

(٧) الجلالين.

غلا رخيصاً في حقّها في هيئة الصّداق وما فوق الصّداق. والحقيقة أنّ دفع موسى عليه السّلام عشر سنوات من زهرة شبابه مهراً للمرأة الكريمة والزّوجة الصّالحة أحد الدّروس المستفادة من هذه السّورة الكريمة، فالأب الصّالح قَبِل من موسى عليه السّلام ما يستطيع دفعه دون مشقّة، وموسى عليه السّلام دفع أعزّ ما يملك مهراً. إنّه عشرة أعوام من شبابه. فلمّا قضى موسى عليه السّلام المدّة المضروبة مع والد زوجه وكان قد بلغ آنذاك سنّ الأربعين سار بأهله من مدين إلى مصر بِرِضاً من صِهْره. ولمّا بلغ عليه السّلام شبه جزيرة سيناء ضلّ طريقه في إحدى اللّيالي الشّاتية ولَم يتمكّن من إشعال النّار بإرادة الله تعالى. لقد كانت حاجة موسى عليه السّلام إذَنْ ماسّةً لمن يهديه سواء السّبيل ولمن يزوّده بشعلة من النّار.

شاء الله تعالى لموسى عليه السّلام المحتاج للنّار وللهادى أن يُبْصِر من جانب جبل الطّور يمين موسى عليه السّلام ناراً متأجّجة. ولمّا كانت العادة قد جرت بأن يكون عند كلّ نارٍ كهذه أصحابها فإنّ موسى عليه السّلام لمّا رأى النّار قال لأهله ابْقُوا في مكانكم إنّي أبصرت ناراً عن بُعْد سأذهب إليها لعلى أعود إليكم منها بخبرٍ يدلّنا على الطّريق الصّحيح، أو عودٍ من الحطب فيه نارٌ لعلّكم تستدفئون بإشعال الحطب وإيقاد النّار.

فَلَمَّآ أَتَىٰهَا نُودِيَ مِن شَٰطِئِ ٱلْوَادِ ٱلْأَيْمَنِ فِي ٱلْبُقْعَةِ ٱلْمُبَٰرَكَةِ مِنَ ٱلشَّجَرَةِ أَن يَٰمُوسَىٰٓ إِنِّيٓ أَنَا ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٣٠﴾

فلمّا أتاها: فلمّا أتى موسى النّار الّتي آنس من جانب الطّور(١).

نودي من شاطىء الوادي الأيمن: يعني بالشّاطىء الشّطّ وهو جانب الوادى وعُدْوته(٢) والأيمن من نعت الشّاطىء عن يمين موسى عليه السّلام(٣).

(١) تفسير الطّبري ٢٠/٤٥

(٢) تفسير الطّبري ٢٠/٤٥

(٣) تفسير الطّبري ٢٠/٤٥.

في البقعة المباركة من الشّجرة : مِنْ صلة الشّاطىء. وتأويل الكلام : فلمّا أتاها نادى الله موسى من شاطىء الوادى الأيمن في البقعة المباركة منه من الشّجرة أن يا موسى إنّى أنا الله ربّ العالمين. وقيل : إنّ معنى قوله من الشّجرة عند الشّجرة(١).

والبُقعة : قطعةٌ من الأرض على غير هيئة الّتى بجنبها(٢).

أن يا موسى : أن مفسِّرة لا مخفّفة من الثقيلة(٣).

جاء في تفسير ابن كثير (٤) رحمه الله تعالى رحمةً واسعة : «قال الله تعالى : ﴿فلمّا أتاها نودي من شاطىء الوادي الأيمن﴾ أي من جانب الوادي ممّا يلى الجبل عن يمينه من ناحية الغرب كما قال تعالى(٥): ﴿وما كنت بجانب الغربّي إذ قضينا إلى موسى الأمر﴾ فهذا ممّا يرشد إلى أنّ موسى قصد النّار إلى جهة القبلة، والجبل الغربيّ عن يمينه، والنّار وجدها تضطرم في شجرة خضراء في لِحْف(٦) الجبل مما يلى الوادي».

إنّ أوّل ما نودّ الوقوف عنده جملة: «أتى» من القول: ﴿فلمّا أتاها﴾ والمعروف أنّ جملة: «أتى» تدلّ في القرآن الكريم دائماً وأبداً على البعد. وهي هنا تفيد البعد المكانيّ في المقام الأوّل كما تفيد البعد الزمانيّ بعد ذلك بدلالة الالتزام. إنّ موسى عليه الصّلاة والسّلام قطع مسافةً طويلةً حتّى وصل إلى النّار. فلمّا قصد موسى عليه الصّلاة والسّلام باتّجاه القبلة النّار ووصل إليها ناداه الحقّ جلّ وعلا من جانب الوادي الواقع إلى يمين موسى عليه السّلام في القطعة المباركة من الأرض الّتى هي على غير هيئة الأرض الّتى بجنبها عند الشّجرة بأن يا موسى إنّى أنا الله تعالى ربّ العالمين.

---

(١) تفسير الطّبري ٢٠/ ٤٥.

(٢) لسان العرب : «بقع».

(٣) الجلالين والجدول في إعراب القرآن وصرفه ١٠/ ٥٦.

(٤) ٦/ ٢٤٤.

(٥) سورة القصص ٤٤ والمعنى : وما كنت يا محمّد بجانب الجبل أو الوادى أو المكان الغربيّ من موسى حين المناجاة. أنظر الجلالين.

(٦) لِحْف الجبل بكسر اللّام وسكون الحاء المهملة : أصله.

وَأَنْ أَلْقِ عَصَاكَ ۖ فَلَمَّا رَءَاهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا
جَآنٌّ وَلَّىٰ مُدْبِرًا وَلَمْ يُعَقِّبْ ۚ يَٰمُوسَىٰٓ أَقْبِلْ وَلَا تَخَفْ ۖ إِنَّكَ
مِنَ ٱلْءَامِنِينَ ﴿٣١﴾

وأن ألق عصاك : يقول تعالى ذكره : نودي موسى أن يا موسى إنّي أنا الله ربّ العالمين وأن ألق عصاك فألقاها موسى فصارت حيّةً تسعى(١).

فلمّا رآها تهتزّ : تتحرّك وتضطرب(٢).

كأنّها جانّ : كأنّها حيّةٌ عظيمة : والجانّ جنسٌ من الحيّات معروف(٣) والجانّ واحد الجِنّان(٤) بكسر الجيم وتشديد النّون(٥).

ولّى مدبرا : ولّى موسى فاراً منها(٦) خوفاً منها(٧).

ولم يعقّب : ولم يلتفت وراءه(٨) ولم يرجع على عقبه(٩) والعَقب : مؤخَّر الرّجل(١٠) من قولهم : عقّب فلانٌ إذا رجع على عقبه إلى حيث بدأ(١١).

نادى الحقّ جلّ وعلا موسى عليه السّلام بأن يا موسى إنّي أنا الله تعالى ربّ العالمين وبأن ألق عصاك الّتي بيمناك فألقاها. فلمّا رأى موسى عليه السّلام عصاه

(١) تفسير الطّبري ٢٠/٤٦

(٢) تفسير الطّبري ٢٠/٤٦

(٣) تفسير الطّبري ١٩/٨٣.

(٤) تفسير الطّبري ٢٠/٤٦

(٥) انظر لسان العرب : «جنن».

(٦) تفسير الطّبري ٢٠/٤٦.

(٧) تفسير الطّبري ١٩/٨٤.

(٨) مفردات الراغب الاصفهاني : «عقب» ٢/٤٤٣.

(٩) تفسير الطّبري ٢٠/٤٦.

(١٠) مفردات الراغب الاصفهاني : «عقب» ٢/٤٤٢.

(١١) تفسير الطّبري ١٩/٨٤.

تنقلب حيّةً عظيمةً تتحـرّك وتضطرب كأنّها من ذلك النّوع من الحيّات الّذى يسمّى واحده الجانّ وجمعه الجِنّان، ولّى مـوسى عليه السّلام مدبراً من الخوف ولم يلتفت وراءه، ولم يرجع إلى عـقبه بل اسـتمرّ مُـصْعِداً في الأرض حـتّى ناداه الحقّ جلّ وعلا وأمـره بأن يقبل إليّـه جلّ وعلا[1] ونهاه عن الخـوف من الحيّـة، إنّه عليه الصّلاة والسّلام من الآمنين السّالمين المطمئنّين بإذن الله تعالى.

وآية العصا أولى آيات موسى عليه السّلام التّسع. وآية اليد ثاني آيات موسى عليه السّلام.

ومن البيّن أنّ آية العصا ذات شقّين اثنين، أحدهمـا حينما يؤمر عليه الصّلاة والسّلام بأن يُلْقِيَ عصاه فتنقلب حيّة. وآخـرهما حينما يؤمر عليه الصّلاة والسّلام بأن يأخذ الحيّة فتعود عصـاً كما كانت أوّل مرّة. ومن البيّن أنّ الآية الكريمة تحدّثت عن الشّقّ الأوّل من مـعـجزة العـصـا واكتـفت به وسكتت عن الشّقّ الآخـر لأنّه معروف. وقد تحدّثت سورة طه وحدها عن شقي معجزة العصا في قول الحق جلّ وعـلا[2]: ﴿قال ألقهـا يا مـوسى. فألقاها فإذا هـي حيّةٌ تسـعى. قال خذها ولا تخف سنعيدها سيرتها الأولى﴾.

---

(١) انظر تفسير الطّبري ٢٠/٤٦

(٢) اسورة طه ١٩-٢١.

أَسْلُكْ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ تَخْرُجْ بَيْضَآءَ مِنْ
غَيْرِ سُوٓءٍ وَٱضْمُمْ إِلَيْكَ جَنَاحَكَ مِنَ ٱلرَّهْبِ ۖ فَذَٰنِكَ
بُرْهَٰنَانِ مِن رَّبِّكَ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا۟
قَوْمًا فَٰسِقِينَ ﴿٣٢﴾

أُسلك يدك : أَدْخل يدك(١) والسّلوك بمعنى النّفاذ في الطّريق(٢).

في جيبك : الجيب : طوق القميص(٣) والفتحة من القميص والدّرع والجبّه الّتى يُدْخل المرء رأسه فيها حينما يرتدي القميص أو الدّرع أو الجبة وما إلى ذلك، من الجَوْب بمعنى القطع(٤) وخَرْق الشّيء. يقال: جُبْتُ الأرض جَوْباً(٥) وجُبْت الشّيء إذا قطعته(٦) وجُبْت البلد إذا قطعته(٧) وجاب الشّيء جَوْباً واجتابه: خرقه. وكلّ مجوَّف قَطَعْتَ وَسَطه فقد جُبْتَه. وجاب الصّخرة جَوْباً: نَقَبَها. وفي التّنزيل العزيز(٨): ﴿وثمودَ الّذين جابوا الصّخر بالواد﴾ قال الفرّاء: جابوا خرقوا الصّخر فاتّخذوه بيوتاً(٩) وهكذا يكون الجيب من القميص وغيره مكان القطع الّذى يُدْخل المرء رأسه فيه حينما يلبس القميص، ويخرج رأسه منه حينما ينزع القميص.

---

(١) تفسير الطّبري ٢٠/٤٦.

(٢) مفردات الرّاغب الأصفهاني : «سلك» ١/ ٣١٥..

(٣) الجلالين وانظر لسان العرب :«جيب».

(٤) مفردات الرّاغب الأصفهاني : «جوب» ١/ ١٣٣.

(٥) معجم مقاييس اللّغة لابن فارس : «جوب» ١/ ٤٩١.

(٦) لسان العرب :«جيب».

(٧) لسان العرب :«جوب».

(٨) سورة الفجر ٩

(٩) لسان العرب :«جوب».

تخرج بيضاء : تتلألأ كأنها قطعة قمر في لمعان البرق[1] وتضيء كشعاع الشّمس تَغْشى البصر[2] وفي مثل بياض الثّلج[3].

من غير سوء: من غير بَرَصٍ[4].

واضمم إليك جناحك: الضّمّ الجمع بين الشّيئين فصاعدا[5] جناحك: أي جانبك[6] وتدور مادّة: «جنح» على الميل. يقول ابن فارس[7]: «الجيم والنّون والحاء أصلٌ واحدٌ يدلّ على الميل والعدوان. ويقال: جنح إلى كذا، أي مال إليه. وسمّي الجناحان جناحين لميلهما في الشّقّين. والجُناح: الإثم، سمّى بذلك لميله عن طريق الحقّ. والجوانح: الأضلاع، لأنّها مائلة» واحدتها الجانحة وذلك لما فيها من الميل[8] والجَناح أساساً للطّائر. يقال: جَنَح الطّائر أي كسر جناحه. قال تعالى[9]: ﴿ولا طائرٍ يطير بجناحيه﴾ وسمّي جانبا الشّيء جناحيه فقيل: جناحا السّفينة وجناحا العسكر وجناحا الوادى وجناحا الإنسان لجانبيه. قال عزّ وجلّ[10]: ﴿واضمم يدك إلى جناحك﴾ أي جانبك. ﴿واضمم إليك جناحك﴾ عبارة عن اليد، لكون الجَناح كاليد، ولذلك قيل لجناحي الطّائر يداه[11].

---

(١) تفسير ابن كثير ٦/ ٢٤٥.

(٢) الجلالين.

(٣) انظر تفسير الطّبري ١٦/ ١١٩.

(٤)تفسير الطبرى ٢٠/ ٤٦ وتفسير ابن كثير ٦/ ٢٤٥ والجلالين.

(٥) مفردات الرّاغب الأصفهاني : «ضم» ٢/ ٣٩٠.

(٦) انظر مفردات الرّاغب الأصفهاني : «جنح» ١/ ١٣٠.

(٧) معجم مقاييس اللّغة : «جنح» ١/ ٤٨٤.

(٨) مفردات الرّاغب الأصفهاني : «جنح» ١/ ١٣١.

(٩) سورة الأنعام. ٣٨.

(١٠)سورة طه ٢٢

(١١) مفردات الرّاغب الأصفهاني : «جنح» ١/ ١٣٠.

«وبالإضافة إلى ملاحظة الميل في كلٍّ من الجناح واليد يلاحظ اللّين والطّواعية في كلٍّ منهما، بحيث إنّ الجَنَاحين إذا كانا ميزان الطّائر فانّ اليدين ميزانا الإنسان. ويكفى دليلاً على ذلك أنّ الواحد منّا في مشيه أو سعيه أو جريه حينما يقدّم الرّجل اليمنى تَتقدّم معها اليد اليسرى، وفي هذه الحال تكون اليد اليمنى متأخّرةً مع الرّجل اليُسْرى، وهكذا دواليْك(١).

من الرَّهب : من الفَزَع(٢) والرّهبة(٣) والخوف الحاصل من إضاءة اليد(٤).

فذانك : فهذان اللّذان أريتكهما يا موسى من تحوّل العصا حيّةً ويدك وهي سمراء بيضاء تلمع من غير برص(٥).

برهانان : آيتان وحجّتان(٦).

آية اليد ذات شقّين اثنين كآية العصا. وإذا كانت سورة طه وحدها قد جاء فيها الحديث عن شقّي آية العصا فإنّ الآية الكريمة الّتى نحن بصددها من سورة القصص قد جاء فيها وحدها الحديث عن شقّي آية اليد. إنّ الشّقّ الأوّل من آية اليد يتجلّى حينما يدخل موسى عليه السّلام يده من فتحة ثوبه الّتى يُدْخل منها رأسه حينما يلبس الثّوب، ويخرجه حينما ينزع الثّوب، حتّى تصل الكفّ إلى الإبط، فيضغط على الكفّ بجانبه وجناحه، ويخرج يده فتخرج بيضاء مضيئةً كشعاع الشّمس من غير مرضٍ ولا برص. وهذا الشّقّ الأوّل من آية اليد يفيده القول من الآية الكريمة : ﴿أُسلك يدك في جيبك تخرج بيضاء من غير سوء﴾ والمعنى: أَدْخِل يا موسى يدك الأدماء في جيبك حتّى تصل كفّك إلى إبطك،

---

(١) التّفسير البسيط ١٦/ ٢١٥.

(٢) مفردات الرّاغب الأصفهاني : «رهب» ١/ ٢٦٩.

(٣) لسان العرب : «رهب»

(٤) الجلالين.

(٥) تفسير الطّبري ٢٠/ ٤٧.

(٦) تفسير الطّبري ٢٠/ ٤٧.

واضمم إليك جنبك واضغط بجناحك على كفّك وأخرج يدك تخرج بيضاء من غير سوء.

وإنّ الشّقّ الآخر من آية اليد يتجلّى حينما يدخل موسى عليه السّلام مرّةً أخرى يده البيضاء هذه المرّة، من فتحة ثوبه أو جيب قميصه، حتّى تصل الكفّ إلى الإبط، فيضغط على الكفّ بجانبه وجناحه، ويخرج يده فتخرج أدماء كما كانت أوّل مرّة. وهذا الشّقّ الآخر من آية اليد يفيده القول من الآية الكريمة: ﴿واضمم إليك جناحك من الرّهب﴾.

والمعنى: وأدخل يا موسى يدك البيضاء الّتى تريد لها أن تعود أدماء كما كانت، واسلكها في جيبك حتّى تصل كفّك إلى الإبط، واضمم إليك جناحك بباعث الخوف من اليد البيضاء، واضغط على كفك بجانبك بباعث الرّهبة من تلك اليد المضيئة، وأخرجها تخرج أدماء كما كانت.

ومن البيّن أنّنا بشأن القول في الآية الكريمة: ﴿اُسْلُكْ يدك في جيبك تخرج بيضاء من غير سوءٍ واضمم إليك جناحك من الرّهب﴾ أمام مظهرٍ من مظاهر إعجاز القرآن الكريم في مجال البلاغة بالحذف. واللّطيف في الأمر أنّ كلّ من يقرأ هذا القول أو يسمعه يفهم المعنى كاملاً رغم الحذف، لأنّ الألفاظ المحذوفة أو المعاني المفهومة دلّت عليها الألفاظ المذكورة أو المعانى المذكورة. وتبدو هذه الحقيقة جليّةً حينما نعدّ الألفاظ أو الوحدات الصّوتيّة لكلٍّ من شقّي الكلام، وللشقّين معاً، ثمّ نقارن كلّ شقٍّ بالّذى يصير إليه بعد ذكر المحذوف، ونعدّ الألفاظ أو الوحدات الصّوتيّة لكلٍّ من شقّي الكلام وللشقّين معاً.

إنّ الوحدات الصّوتيّة للشّقّ الأوّل تسع وحدات. قال تعالى: ﴿اسلك يدك في جيبك تخرج بيضاء من غير سوء﴾.

وإنّ الوحدات الصّوتيّة للشقّ الآخر خمس وحدات. قال تعالى: ﴿واضمم إليك جناحك من الرّهب﴾ ومجموع الوحدات في الشّقّين معاً أربع عشرة وحدةً صوتيّة.

وإنّ الوحدات الصّوتيّة للشّقّ الأوّل وحده بعد ذكر المحذوف خمس عشرة

وحدة، هي على النحو التّالى، وقد وضعنا الزّيادات بين معقوفين ﴿اُسلك يدك [الأدماء] في جيبك [واضمم إليك جناحك وأخرج يدك] تخرج بيضاء من غير سوء﴾ وهكذا أضيف إلى الوحدات التّسع المذكورة ستّ وحدات محذوفة. ومن الطّبيعيّ أن تكون الوحدات المذكورة في هذا الشّقّ الأوّل أكثر من المحذوفة كيّ يتّضح المعنى، ومع ذلك فإنّ نسبة المحذوف إلى المذكور كبيرة، إنّ النّسبة اثنتان إلى ثلاث.

وإنّ الوحدات الصّوتيّة للشّقّ الآخر بعد ذكر المحذوف ستّ عشرة وحدةً صوتيّة، هي على النّحو التّالى، وقد وضعنا الزّيادات بين معقوفين. «[واسلك يدك البيضاء في جيبك] ﴿واضمم إليك جناحك من الرّهب﴾ [وأخرج يدك تخرج أدماء كما كانت]» وهكذا أضيف إلى الوحدات الخمس المذكورة إحدى عشرة وحدةً محذوفة، وبذلك تكون نسبة المحذوف هنا بالقياس إلى المذكور أكثر من الضّعف.

وهكذا تكون الوحدات الصّوتيّة المذكورة لآية اليد بشقّيها في الآية الكريمة أربع عشرة وحدة، وتكون الوحدات الصّوتيّة المحذوفة سبع عشرة وحدة. إنّ ذلك يعنى أنّ التّعبير عن المعنى كاملاً في الآية الكريمة قد تمّ بأقلّ من النّصف من الألفاظ. فسبحان الله تعالى القادر علي كلّ شيء، الّذى لا يعجزه شيءٌ في الأرض ولا في السّماء(١).

وتختتم الآية الكريمة بالقول: ﴿فذانك برهانان من ربّك إلى فرعون وملئه. إنّهم كانوا قوماً فاسقين﴾ والمعنى فهذان اللّذان أريتك يا موسى من تحوّل العصا حيّة وعودتها عصا مرّة أخري، ومن تحوّل اليد الأدماء بيضاء وعودتها أدماء مرّة أخرى، حجّتان من ربّك إلى فرعون وملئه بأنّك رسول ربّ العالمين. إنّهم كانوا قوماً خارجين عن الصّراط المستقيم.

---

(١) سبق أن أومأنا إلى انفراد سورة طه بالحديث عن شقّي آية العصا، وانفراد سورة القصص بالحديث عن شقّي آية اليد في أثناء دراسة الآيات ١٧-٢٣ من التّفسير البسيط ١٦/٢٠٨-٢١٧.

قَالَ رَبِّ إِنِّي قَتَلْتُ مِنْهُمْ نَفْسًا فَأَخَافُ
أَنْ يَقْتُلُونِ ﴿٣٣﴾ وَأَخِي هَارُونُ هُوَ أَفْصَحُ مِنِّي لِسَانًا
فَأَرْسِلْهُ مَعِيَ رِدْءًا يُصَدِّقُنِي إِنِّي أَخَافُ أَنْ يُكَذِّبُونِ ﴿٣٤﴾

إنيّ قتلت منهم نفساً : يعنى ذلك القبطي(١).

فأخاف أن يقتلون : به(٢).

أفصح منّى لساناً : أحسن بياناً(٣).

ردءاً : الرّدء الّذى يتبع غيره معيناً له(٤).

يصدّقنى : كي يصدّقنى(٥) وكيما يصدّقنى(٦).

قال موسى عليه السّلام : ياربّ إنّى قتلت من آل فرعون نفساً فأخاف إن ذهبت إليهم، وعرّفتهم نفسى، ودعوتهم إلى عبادة الله تعالى وحده لا شريك له أن يقتلوني بذلك القبطيّ الّذى قتلته. وأخى هارون وشقيقى من أبى وأمّى هو أفصح لساناً، وأبلغ بياناً، وأحسن تعبيراً منّى، بسبب بقيّة العقدة من لساني، فأرسل يا ربّى أخى هارون معى تابعاً ومعيناً، وزيراً ونصيرا، كي يصدّقنى ويبلّغ الرّسالة معى. إنّى أخاف أن يكذّبنى فرعون وآله، وينالني عقابه ونكاله.

---

(١) تفسير ابن كثير ٦/ ٢٤٥.

(٢) الجلالين.

(٣) تفسير الطّبري ٢٠/ ٤٧.

(٤) مفردات الرّاغب الأصفهاني : «ردأ» ١/ ٢٥٧.

(٥) تفسير الطّبري ٢٠/ ٤٨.

(٦) تفسير الطّبري ٢٠/ ٤٨.

قَالَ سَنَشُدُّ عَضُدَكَ بِأَخِيكَ وَنَجْعَلُ لَكُمَا سُلْطَٰنًا فَلَا يَصِلُونَ إِلَيْكُمَا ۚ بِـَٔايَٰتِنَآ أَنتُمَا وَمَنِ ٱتَّبَعَكُمَا ٱلْغَٰلِبُونَ ﴿٣٥﴾

سنشدّ عضدك بأخيك : أي نقوّيك ونعينك بأخيك(١) والعَضُد ما بين المِرْفق إلى الكَتف. ويستعار العضد للمعين كاليد. يقال : عضدتُه أخذت عضده وقوّيته(٢) وتقول العرب إذا أعزّ رجلٌ رجلاً وأعانه ومنعه ممّن أراده بظلمٍ قد شدّ فلانٌ على عضد فلان(٣).

سلطاناً : حجّة(٤).

فلا يصلون إليكما : لا يصل إليكما فرعون وقومه بسوء(٥).

بآياتنا أنتما ومن اتّبعكما الغالبون : الباء في قوله : ﴿بآياتنا﴾ من صلة : «غالبون» ومعنى الكلام : أنتما ومن اتّبعكما الغالبون فرعون وملأه بآياتنا أي بحجّتنا وسلطاننا الّذى نجعله لكما(٦).

قال الحقّ جلّ وعلا لموسى الكليم عليه الصّلاة وأتم التّسليم سنشدّ عضدك بأخيك هارون، وسنقوّيك ونعينك بشقيقك من أمّك وأبيك، فنكرمه بالنّبوّة، ونصطفيه بالرّسالة، ونجعل لكما سلطاناً، حُجّةً وبرهانا، فلا يصلون إليكما بسوء، ولا ينالونكما بأذى. أنت يا موسى وأنت يا هارون ومن اتّبعكما واهتدى بهديكما من عبادنا المؤمنين، أنتم جميعاً الغالبون المظَفّرون المنتصرون.

---

(١) تفسير الطّبري ٢٠/٤٨.

(٢) انظرمفردات الرّاغب الأصفهاني : «عضد» ٢/٤٣٩.

(٣) تفسير الطّبري ٢٠/٤٨.

(٤) تفسير الطّبري ٢٠/٤٨.

(٥) تفسير الطّبري ٢٠/٤٨.

(٦) تفسير الطّبري ٢٠/٤٨.

جاء في هذا المعنى قول الحقّ جلّ وعلا في سورة مريم(١) : ﴿واذكر في الكتاب موسى إنّه كان مُخْلصاً وكان رسولاً نبيّا. وناديناه من جانب الطّور الأيمن وقرّبناه نجيّا. ووهبنا له من رحمتنا أخاه هارون نبيّا﴾ وجاء قول الحقّ جلّ وعلا في سورة طه(٢) : ﴿اذهب إلى فرعون إنّه طغى. قال ربّ اشرح لى صدرى. ويسّر لى أمرى. واحلل عقدةً من لسانى. يفقهوا قولى. واجعل لى وزيراً من أهلى. هارون أخى. اُشْدُد به أزْرى. وأَشْرِكْهُ في أمرى. كي نسبّحك كثيراً. ونذكرك كثيراً. إنّك كنت بنا بصيرا. قال قد أوتيت سُؤْلَكَ يا موسى﴾.

فَلَمَّا جَآءَهُم مُّوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَا بَيِّنَٰتٍ قَالُوا۟ مَا هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّفْتَرًى وَمَا سَمِعْنَا بِهَٰذَا فِىٓ ءَابَآئِنَا ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٣٦﴾ وَقَالَ مُوسَىٰ رَبِّىٓ أَعْلَمُ بِمَن جَآءَ بِٱلْهُدَىٰ مِنْ عِندِهِۦ وَمَن تَكُونُ لَهُۥ عَٰقِبَةُ ٱلدَّارِ ۖ إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٣٧﴾

قالوا ما هذا : ما أخبرا عن الله عزّ وجلّ من توحيده واتّباع أوامره(٣).
سحرٌ مفترى : مفتعل مصنوع(٤) مختلق(٥).
وما سمعنا بهذا في آبائنا الأوّلين : وما سمعنا بهذا الّذى تدعونا إليه من

(١) الآيات ٥١-٥٣.
(٢) الآيات ٢٤-٣٦.
(٣) تفسير ابن كثير ٦/ ٢٤٧.
(٤) تفسير ابن كثير ٦/ ٢٤٧.
(٥) الجلالين.

عبادة من تدعونا إلى عبادته في أسلافنا وآبائنا الأوّلين الّذين مضوا قبلنا(١).

ومن تكون له عاقبة الدّار : ومن الّذى له العاقبة المحمودة في الدّار الآخرة(٢) والعقبى المحمودة في الدّار الآخرة منّا(٣).

فلمّا جاء موسى عليه السّلام فرعون وملأه بآيات الله تعالى البيّنات وحججه الواضحات ومعه شقيقه هارون عليه السّلام قال فرعون وملؤه ما هذا الّذى جاء به موسى من آيات إلاّ سحرٌ مُخْتَلَقٌ وليس من عند الله تعالى، وما سمعنا بهذا الّذى نُدْعَى إليه من توحيد الله تعالى وفعل الأوامر واجتناب النّواهي في آبائنا الأوّلين وأسلافنا الأقدمين.

وقال موسى عليه السّلام ردّاً على المكذبين : ربّى عزّ وجلّ أعلم بالذى جاء بالهدى من عنده جلّ وعلا وبإذنه وأمره، وأعلم بالّذى تكون له العاقبة المحمودة في الدّار الآخرة والنّعيم المقيم في الجنّة. إنّه لا يُفْلح الظّالمون ولا ينجح المشركون.

ومن البيّن أنّ موسى عليه السّلام يعنى نفسه وشقيقه هارون عليهما السّلام اللّذين جاءا بالهدى من عند الله تعالى واللّذين ستكون لهما بإذن الله تعالى العاقبة المحمودة في الدّار الآخرة والنّعيم المقيم في جنّات النّعيم. إنّ ذلك هو الفلاح الكبير والنّجاح العظيم. أمّا الكافرون والمشركون، فرعون وملؤه، فإنّهم لا يفلحون ولا ينجحون، لأنّ مصيرهم النّار وبئس القرار.

---

(١) تفسير الطّبري ٢٠/٤٨

(٢) الجلالين.

(٣) تفسير الطّبري ٢٠/٤٩.

وَقَالَ فِرْعَوْنُ

يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَأُ مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرِى فَأَوْقِدْ
لِى يَٰهَٰمَٰنُ عَلَى ٱلطِّينِ فَٱجْعَل لِّى صَرْحًا لَّعَلِّىٓ أَطَّلِعُ إِلَىٰٓ
إِلَٰهِ مُوسَىٰ وَإِنِّى لَأَظُنُّهُۥ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿٣٨﴾ وَٱسْتَكْبَرَ
هُوَ وَجُنُودُهُۥ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُمْ إِلَيْنَا
لَا يُرْجَعُونَ ﴿٣٩﴾ فَأَخَذْنَٰهُ وَجُنُودَهُۥ فَنَبَذْنَٰهُمْ فِى
ٱلْيَمِّ ۖ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٤٠﴾
وَجَعَلْنَٰهُمْ أَئِمَّةً يَدْعُونَ إِلَى ٱلنَّارِ ۖ وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ
لَا يُنصَرُونَ ﴿٤١﴾ وَأَتْبَعْنَٰهُمْ فِى هَٰذِهِ ٱلدُّنْيَا لَعْنَةً ۖ
وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ هُم مِّنَ ٱلْمَقْبُوحِينَ ﴿٤٢﴾

فأوقد لى يا هامان على الطّين : هامان ،وزير فرعون ومدبّر رعيّته ومشير دولته(١) يقول : فاعمل لى آجراً، وذكر أنّه أوّل من طبخ الآجرّ وبنى به(٢).

فاجعل لى صرحاً : ابن لى بالآجرّ بناء. وكلّ بناءٍ مسطّح فهو صرح كالقصر(٣) والصّرح بيتٌ عالٍ مزوّق(٤).

لعلّى أطّلع إلى إله موسى : لعلّى أنظر إلى معبود موسى الّذى يعبده ويدعو إلى عبادته(٥).

---

(١) تفسير ابن كثير ٦/ ٢٤٨.

(٢) تفسير الطّبري ٢٠/ ٤٩

(٣) تفسير الطّبري ٢٠/ ٤٩.

(٤) مفردات الرّاغب الأصفهاني : «صرح» ٢/ ٣٦٧

(٥) تفسير الطّبري ٢٠/ ٤٩.

بغير الحقّ : تعدّياً وعتواً على ربهم(١).

فأخذناه وجنوده : فجمعنا فرعون وجنوده من القبط(٢) والأخذ حوز الشّيء وتحصيله. وذلك تارةً بالتّناول نحو(٣) : ﴿معاذ الله أن نأخذ إلاّ من وجدنا متاعنا عنده﴾ وتارةً بالقهر نحو قوله(٤): ﴿فأخذه الله نكال الآخرة والأولى﴾(٥).

فنبذناهم في اليمّ : فألقيناهم جميعهم في البحر فغرّقناهم فيه(٦).

فانظر كيف كان عاقبة الظالمين: فانظر يا محمّد بعين قلبك كيف كان أمر هؤلاء الّذين ظلموا أنفسهم فكفروا بربّهم وردّوا على رسوله نصيحته ألم نهلكهم(٧).

وجعلناهم أئمّةً يدعون إلى النّار: وجعلنا فرعون وقومه أئمّةً يأتمّ بهم أهل العتوّ على الله والكفر به يدعون النّاس إلى أعمال أهل النّار(٨) والإمام المؤتمّ به إنساناً كان أو كتاباً أو غير ذلك، محقّاً كان أو مبطلا، وجمعه أئمّة(٩).

وأتبعناهم في هذه الدّنيا لعنةً ويوم القيامة: وألزمنا فرعون وقومه في هذه الدّنيا خزياً وغضباً منّا عليهم فحتمنا لهم فيها بالهلاك والبوار والثّناء السّيىء. ونحن متبعوهم لعنةً أخرى يوم القيامة فمخزوهم بها الخزي الدّائم ومهينوهم الهوان اللّازم(١) قال قتادة: هو كقوله(٢): ﴿وأتبعوا في هذه لعنةً ويوم القيامة.

---

(١) تفسير الطّبري ٢٠/٤٩

(٢) تفسير الطّبري ٢٠/٤٩

(٣) سورة يوسف ٧٩.

(٤) سورة النّازعات ٢٥.

(٥) انظر مفردات الرّاغب الأصفهاني : «أخذ» ١/١٤.

(٦) تفسير الطّبري ٢٠/٤٩.

(٧) تفسير الطّبري ٢٠/ ٥٠..

(٨) تفسير الطّبري ٢٠/ ٥٠.

(٩) انظر مفردات الرّاغب الأصفهاني : «أمّ» ١/٢٩.

بئس الرّفد المرفود﴾(٣).

هم من المقبوحين: هم من القوم الّذين قبّحهم الله فأهلكهم بكفرهم بربّهم وتكذيبهم رسوله موسى عليه السّلام فجعلهم عبرةً للمعتبرين وعظةً للمتّعظين(٤) والقبيح ما ينبو عنه البصر من الأعيان وما تنبو عنه النّفس من الأعمال والأحوال. وقد قَبُح قباحةً فهو قبيح. وقوله: ﴿من المقبوحين﴾ أي من الموسومين بحالةٍ مُنْكَرة(٥).

وقال فرعون الطّاغية مخاطباً قومه يا أيّها الملأ والكبراء، ويلحق بهم الأتباع بطريق الأَحْرى، ما علمت لكم من إله غيرى ومعبودٍ سواي، وأنتم بطبيعة الحال ما ينبغى لكم ولا يصحّ أن تعلّموا غير علمى فلا إله غيرى ولا معبود سواي: ﴿كبرت كلمةً تخرج من أفواههم إن يقولون إلاّ كذبا﴾(٦) فأوقد لى يا وزيرى يا هامان النّار على الطّين واصنع لى آجراً، فاجعل لى بناءً مشمخراً، وقصراً مسبطرّا، لعلّى أطّلع إلى إله موسى الّذى يعبده ويدعو إلى عبادته، وأصل إلى هذا المعبود وأنظر إليه. وإنّى لأظنّ موسى من الكاذبين في عبادته إلهاً آخر وادّعائه أنّه رسوله.

ويقال إنّ هذه هي المرّة الأولى الّتى ادّعى فيها فرعون الألوهيّة، ويلاحظ أنّ الادّعاء هذه المرّة فيه شيءٌ من الدّهاء وكأنه جسٌّ نبض. وحينما تبيّن فرعون أنّ قومه خفيفو العقول والأحلام تحوّل في المرّة الآخرة إلى الادّعاء الصّريح، والزّعم القبيح. ويقال إنّ بين الادّعاءين وقتاً طويلاً يصل إلى أربعين

---

(١) تفسير الطّبري ٢٠/ ٥٠.

(٢) سورة هود ٩٩.

(٣) تفسير الطّبري ٢٠/ ٥٠.

(٤) تفسير الطّبري ٢٠/ ٥٠.

(٥) مفردات الرّاغب الأصفهاني: «قبح» ٢/ ٥٠٥.

(٦) سورة الكهف ٥.

سنة(١) وإلى هذه المرّة الآخرة وأخذه عزّ وجلّ جزاء أكذوبتيه الأولى والآخرة وجعله نكالاً وعبرةً للآخرين، أشار قول الحقّ جلّ وعلا في سورة النّازعات(٢): ﴿هل أتاك حديث موسى. إذ ناداه ربّه بالوادى المقدّس طوى. اذهب إلى فرعون إنّه طغى. فقل هل لك إلى أن تزكّى. وأهديك إلى ربّك فتخشى. فأراه الآية الكبرى. فكذّب وعصى. ثمّ أدبر يسعى. فحشر فنادى. فقال أنا ربّكم الأعلى. فأخذه الله نكال الآخرة والأولى. إنّ في ذلك لعبرةً لمن يخشى﴾.

ويتبيّن من القول: ﴿فأوقد لى يا هامان على الطين﴾ الطّريقة الّتى يتمّ بواسطتها عمل الآجرّ. إنّ النّار توقد على الطين وبعد طبخه يصير آجرّا. وهذه الطّريقة تختلف عن طريقة إذابة المعادن في البوتقة بالنّار. وإلى طريقة إذابة المعدن أشار قول الحقّ جلّ وعلا في سورة الرعد(٣): ﴿أنزل من السّماء ماءً فسالت أوديةٌ بقَدَرِها فاحتمل السّيل زبداً رابياً. ومّما يوقدون عليه في النّار ابتغاء حلْيةٍ أو متاعٍ زبدٌ مثله. كذلك يضرب الله الحقّ والباطل. فأمّا الزّبد فيذهب جفاءً وأمّا ما ينفع النّاس فيمكث في الأرض. كذلك يضرب الله الأمثال﴾ إنّ البوتقة الّتي فيها المَعْدِن توضع في النّار الّتى يوقَدُ المزيد منها حتّى يذوب غالى المعدن من أجل الحصول على الحلّي أو رخيص المعدن من أجل الحصول على الآنية. إنّ النّار في حال إذابة المعدن كأنّها نابعةٌ من المعدن لأنّ المعدن في أعماق النّار. وإنّ النّار المحيطة بالطّين في حال عمل الآجرّ كأنّها متّجهةٌ إلى الطّين من خارجه ومتسلّطةٌ عليه. إنّ هذه الفروق الدّقيقة بين العمليّتين أوحى بها دخول حرف الجرّ «في» على لفظة «النّار» بشأن المعدن في قول الحقّ جلّ وعلا: ﴿ومّما يوقدون عليه في النّار ابتغاء حليةٍ أو متاعٍ﴾ إنّ المعدن في النّار ويوقد على بوتقته، وأوحى بالفروق كذلك دخول حرف الجرّ «على» على لفظة: «الطين» بشأن الآجرّ في قول الحقّ جلّ وعلا: ﴿فأوقد لى

---

(١) انظر تفسير الطّبرى ٣٠/٢٧.

(٢) الآيات ١٥-٢٦.

(٣) الآية ١٧.

يا هامان على الطّين﴾ إنّ الطّين توقد عليه النّار وتسلّط عليه من خارجه(١).

لقد استكبر فرعون وجنوده في أرض مصر تعدّياً وعتوّاً على ربّهم جلّ وعلا، وظنّوا أنّهم لا يرجعون إلى الله تعالى يوم القيامة فيحاسبهم ويعاقبهم. لقد أخذ الله تعالى المقتدر الجبّار فرعون وجنوده أخذاً وبيلاً فألقاهم جميعاً في البحر وأغرقهم في الماء المِلْح فانظر يا محمّد بقلبك وتأمّل بعين بصيرتك كيف كان عاقبة الظّالمين وعذابهم الأليم. وتلك هي عاقبة الظّالمين في كلّ زمانٍ ومكان. ولا يخفى أنّنا بصدد تسلية غير مباشرةٍ للمصطفى ﷺ وللمؤمنين في هذه الفترة المكّيّة المبكّرة من عمر الدّعوة.

وجعل الله تعالى فرعون وجنوده قادةً للضّالّين يدعون النّاس إلى أعمال النّار، ويوم القيامة لا يُنصرون بصرف العذاب عنهم ولا تخفيفه. وأتبع الله تعالى فرعون وجنوده في هذه الدّنيا لعنةً وطرداً من رحمته جلّ وعلا، وفي الآخرة لعنةً وطرداً من رحمته جلّ وعلا، وهم يوم القيامة متّصفون بأقبح الصّفات المحسوسة والمعنويّة الّتي قبّحهم الله تعالى بها، فالعين تنبو عنهم لقبح مظهرهم، والنّفس تنبو عنهم لقبح مخبرهم.

---

(١) انظر تأمّلات في سورة الرّعد للمؤلّف ١٢٣-١٣٢.

وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا
مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ مِنۢ بَعْدِ مَآ أَهْلَكْنَا ٱلْقُرُونَ ٱلْأُولَىٰ
بَصَآئِرَ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَرَحْمَةً لَّعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٤٣﴾

ولقد آتينا موسى الكتاب : التّوراة(١).

من بعد ما أهلكنا القرون الأولى : من بعد ما أهلكنا الأمم الّتى كانت قبله كقوم نوحٍ وعاد وثمود وقوم لوطٍ وأصحاب مدين(٢).

بصائر للنّاس : ضياءً لبنى إسرائيل فيما بهم إليه الحاجة من أمر دينهم(٣) حال من الكتاب، جميع بصيرة وهو نور القلب أي أنوار القلوب(٤).

وهدىً : من الضّلالة لمن عمل به(٥).

ورحمةً : لمن آمن به(٦).

لعلّهم يتذكّرون : ليتذكّروا نعم الله بذلك عليهم فيشكروه عليها ولا يكفروا(٧) ولعلّهم يتّعظون بما فيه من المواعظ(٨).

ولقد آتى الله سبحانه وتعالى موسى عليه السّلام، كبير أنبياء بنى إسرائيل التّوراة، من بعد ما أهلك الله تعالى الأمم السّابقة المكذّبة رسل الله تعالى، ابتداءً

(١) تفسير الطّبري ٢٠/ ٥٠.

(٢) تفسير الطّبري ٢٠/ ٥٠.

(٣) تفسير الطّبري ٢٠/ ٥٠.

(٤) الجلالين

(٥) الجلالين

(٦) الجلالين

(٧) تفسير الطّبري ٢٠/ ٥٠.

(٨) الجلالين

بقوم نوحٍ عليه السّلام، أوّل رسولٍ أرسله الله تعالى إلى البشر، ومروراً بالأمم المكّذبة مِنْ أمثال عادٍ وثمود وقوم إبراهيم وقوم لوطٍ عليهما السّلام وأصحاب مدين. لقد آتى الله تعالى موسى عليه السّلام التّوراة ضياءً لقلوب مؤمنى بنى اسرائيل ونوراً لبصائرهم، وهدىً من الضّلالة لمن اهتدى وآمن بها، ورحمةً لمن آمن بها واستمسك، لعلّهم يتّعظون بما فيها من المواعظ، ويتذكّرون نعم الله تعالى عليهم، ويقومون بما يجب عليهم من شكرٍ لله تعالى عليها.

(٤)

« القرآن الكريم كلام الله تعالى، وإصرار كافري قريش واليهود على الكفر بالقرآن الكريم والتوراة »

الآيات (٤٤-٥١)

وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ ٱلْغَرْبِيِّ إِذْ قَضَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَى ٱلْأَمْرَ وَمَا كُنتَ
مِنَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴿٤٤﴾ وَلَٰكِنَّآ أَنشَأْنَا قُرُونًا فَتَطَاوَلَ عَلَيْهِمُ
ٱلْعُمُرُ ۚ وَمَا كُنتَ ثَاوِيًا فِىٓ أَهْلِ مَدْيَنَ تَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ
ءَايَٰتِنَا وَلَٰكِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ ﴿٤٥﴾ وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ
ٱلطُّورِ إِذْ نَادَيْنَا وَلَٰكِن رَّحْمَةً مِّن رَّبِّكَ لِتُنذِرَ قَوْمًا
مَّآ أَتَىٰهُم مِّن نَّذِيرٍ مِّن قَبْلِكَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٤٦﴾

وما كنت بجانب الغربيّ : وما كنت يا محمّد بجانب غربيّ الجبل(١).

إذ قضينا إلى موسى الأمر : إذ فرضنا إلى موسى الأمر(٢) بالرّسالة إلى فرعون وقومه(٣).

وما كنت من الشّاهدين : وما كنت لذلك من الشّاهدين(٤).

ولكنّا أنشأنا قروناً : ولكنّا خلقنا أمماً فأجدثناها من بعد ذلك(٥).

فتطاول عليهم العمر : أي طالت أعمارهم فنسوا العهود، واندرست العلوم، وانقطع الوحي، فجئنا بك رسولاً، وأوحينا إليك خبر موسى وغيره(٦).

(١) تفسير الطّبري ٢٠/ ٥١.

(٢) تفسير الطّبري ٢٠/ ٥١.

(٣) الجلالين.

(٤) تفسير الطّبري ٢٠/ ٥١.

(٥) تفسير الطّبري ٢٠/ ٥١..

(٦) الجلالين.

وما كنت ثـاوياً في أهل مدين : وما كنـت مقيـماً في أهل مـدين. يقال : ثويت بالمكان أثوى به ثواء[١].

تتلو عليهم آياتنا : تقرأ عليهم كتابنا[٢].

ولكنّا كنّا مرسلين : لك وإليك بأخبار المتقدّمين[٣].

وما كنت بجانب الطّور إذ نادينا : وما كنت يا محمّد بجانب الجبل إذ نادينا موسى[٤] أن خذ الكتاب بقوّة[٥].

ولكن رحمة : ولكن أرسلناك بهذا الكتاب وهذا الدّين رحمة[٦].

لعلّهم يتذكّرون : يتّعظون[٧].

وما كنت يا محمّد بجانب الجبل الغـربيّ إذ قضينا إلى موسى الأمر وفرضنا عليـه الرّسالة إلى فـرعون وقومـه، وما كنت لشيء مـن تلك الأمور الجـسام من الشّاهدين والمعاصرين، ولكنّا أنشـأنا بعد موسى عليه السّلام أمماً متعـاقبة، فتطاول عليهم العـمر، وبَعُدَ بهم العـهد بتعاليم السّـماء، وقست قلوبهم، وانحـرفوا عن الصّراط المستقيم والطّريق القويم، وها نحن أولاء نوحى إليك بالصّدق من القول، والحقّ من النّبأ. وما كنـت يا محمّد مقيـماً في أهل مدين على عهـد موسى عليه السّلام تتلو عليهم ما أوحينا إليك من نبأ موسى عليه السّلام في أهل مدين، ولكنّا كنّا مرسلين لك يا أشرف المرسلين، وموحين إليك يا خـاتم النّبيّين. ومـا كنت يا محمّد بجانب جبل الطّور إذ نادينا موسـى عليه السّلام فتنقل الدّقيق من الأخبار والصّادق من الأنباء إلى قومك، ولكنّا أرسلناك للعالمين رحمةً من ربّك، لتنذر في

---

(١) تفسير الطّبري ٢٠/ ٥١.

(٢) تفسير الطّبري ٢٠/ ٥١.

(٣) الجـلالين.

(٤) تفسير الطّبري ٢٠/ ٥١.

(٥) الجـلالين.

(٦) تفسير الطّبري ٢٠/ ٥٢.

(٧) الجـلالين.

المقام الأوّل قومك الّذين ما أتاهم من نذير من قبلك لعلّهم يتذكّرون نعم الله تعالى عليهم فيشكرون ولا يكفرون، ويتّعظون فترقّ قلوبهم وتصفو نفوسهم وتحيا ضمائرهم.

وَلَوْلَآ أَن تُصِيبَهُم مُّصِيبَةٌۢ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ فَيَقُولُوا۟ رَبَّنَا لَوْلَآ أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا فَنَتَّبِعَ ءَايَٰتِكَ وَنَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٤٧﴾ فَلَمَّا جَآءَهُمُ ٱلْحَقُّ مِنْ عِندِنَا قَالُوا۟ لَوْلَآ أُوتِىَ مِثْلَ مَآ أُوتِىَ مُوسَىٰٓ ۚ أَوَلَمْ يَكْفُرُوا۟ بِمَآ أُوتِىَ مُوسَىٰ مِن قَبْلُ ۖ قَالُوا۟ سِحْرَانِ تَظَٰهَرَا وَقَالُوٓا۟ إِنَّا بِكُلٍّ كَٰفِرُونَ ﴿٤٨﴾ قُلْ فَأْتُوا۟ بِكِتَٰبٍ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ هُوَ أَهْدَىٰ مِنْهُمَآ أَتَّبِعْهُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٤٩﴾ فَإِن لَّمْ يَسْتَجِيبُوا۟ لَكَ فَٱعْلَمْ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَآءَهُمْ ۚ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ ٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ بِغَيْرِ هُدًى مِّنَ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٥٠﴾ ۞ وَلَقَدْ وَصَّلْنَا لَهُمُ ٱلْقَوْلَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٥١﴾

مصيبة : عذابٌ ونقمة(١).

بما قدّمت أيديهم : بما اكتسبوا(٢).

لولا أرسلت إلينا رسولاً : هلاّ أرسلت إلينا رسولاً من قبل أن يحلّ بنا سخطك وينزل بنا عذابك(٣) وجواب لولا محذوف(٤) والتّقدير : لعاجلناهم بالعقوبة ولما أرسلناك إليهم رسولاً(٥).

---

(١) تفسير الطّبري ٢٠/ ٥٢.

(٢) ا تفسير الطّبري ٢٠/ ٥٢.

(٣) تفسير الطّبري ٢٠/ ٥٢.

(٤) الجلالين.

(٥) انظر تفسير الطّبري ٢٠/ ٥٢ والجلالين.

فلمّـا جاءهم الحقّ من عندنا : فلمّـا جاءهم مـحمّدٌ ﷺ بالرّسـالة من الله إليهم(١).

قالوا لولا أوتي مـثلما أوتي موسى : قال مـجاهد بن جبر : أمـرت اليهود قريشاً أن يقولوا لمحمّد ﷺ ذلك(٢) والمعنى : لولا أوتي محمّد مثلما أوتى موسى من الآيات الكثيـرة مثل العصـا واليد والطّوفـان والجراد والقمّل والضّـفادع والدّم وتنقّص الزّروع والثّمار إلى غير ذلك من الآيات(٣).

أولم يكفروا بما أوتى مـوسى من قبل : يقول الله لمحمّـد ﷺ : قل لقريش يقولوا لهم ذلك(٤).

قالوا سـحران تظاهرا : عن ابن عـباس، قـوله : ﴿قالوا سحـران تظاهرا﴾ التّوراة والقرآن(٥) تعاونا(٦) وتناصرا وصدّق كلٌّ منهما الآخر(٧).

وقالوا إنّا بكلٍّ كافرون : عن ابن عبّاس هم أهل الكتاب قالوا إنّا بالكتابين، التّوراة والفرقان، كافرون(٨).

---

(١) تفسير الطّبري ٢٠/ ٥٢.

(٢) تفسير ابن كثير ٦/ ٢٥٢ وتفسير الطّبرى ٢٠/ ٥٢.

(٣) انظر تفسير ابن كثير ٦/ ٢٥١

(٤) انظر تفسير الطّبري ٢٠/ ٥٢.

(٥) تفسير الطّبري ٢٠/ ٥٣.

(٦) تفسير الطّبري ٢٠/ ٥٤ والجلالين.

(٧) تفسير ابن كثير ٦/ ٢٥٢

(٨) انظر تفسير الطّبري ٢٠/ ٥٤.

قل فأتوا بكتابٍ من عند الله هو أهدى منهما : قل يا محمّد لليهود الزّاعمين أنّ الحقّ في غير هذين الكتابين(١).

إن كنتم صادقين : في قولكم(٢).

ومن أضلّ ممّن اتّبع هواه بغير هدىً من الله : أي لا أحد أضلّ(٣) عن طريق الرّشاد وسبيل السّداد ممّن اتّبع هوى نفسه بغير بيانٍ من عند الله وعهد من الله(٤).

ولقد وصّلنا لهم القول : ولقد فصّلنا(٥) ووصّلنا يا محمّد لقومك من قريشٍ ولليهود من بنى إسرائيل القول بأخبار الماضين والنبأ عمّا أحللنا بهم من بأسنا إذ كذّبوا رسلنا(٦).

ولولا أن تصيب كفّار قريشٍ قارعةٌ وتحقّ عليهم كلمة العذاب بسبب ما قدّمت أيديهم من أعمالٍ سيّئة فيقولوا يا ربّنا هلاّ أرسلت إلينا رسولاً فنتّبع آياتك البّينات ونكون من عبادك المؤمنين لعاجلناهم بالعقوبة ولم نرسلك يا محمّد إليهم رسولاً. إنّ ربّ العزّة والجلال لا يؤاخذ الظّالمين بسابق علمه ولكن بأعمالهم ولهذا يرسل الله تعالى الرّسل لكيلا يكون للنّاس على الله تعالى حجّةٌ بعد إرسال الرّسل، وفيهم خاتمهم وأشرفهم محمّد بن عبد الله ﷺ. فلمّا جاء مشركى قريش محمّدٌ ﷺ، الرّسول الحقّ من الله تعالى، قال مشركو قريش بإيحاء من أصدقائهم كافرى يهود : هلاّ أوتي محمّد من الآيات المحسوسات مثْلَ ما أوتى موسى من تلك الآيات المحسوسات كالعصا واليد وفلق البحر وانفجار الماء من الحجر وتظليل

---

(١) انظر تفسير الطّبري ٢٠/٥٥.

(٢) الجلالين.

(٣) انظر الجلالين.

(٤) تفسير الطّبري ٢٠/٥٥.

(٥) تفسير الطّبري ٢٠/٥٥.

(٦) تفسير الطّبري ٢٠/٥٥.

الغمام وإنزال المنّ والسّلوى وما إلى ذلك! يقول الله تعالى لمحمد ﷺ : قل لقريش قولوا لكافرى يهود الرّاضين عن موقف كافريهم السّابقين من موسى عليه السّلام المستعدّين لأن يفعلوا فعلهم : ألم يكفر آباؤكم بما آتى الله تعالى موسى عليه السّلام من آيات بيّنات؟ إنّ اباءهم المعاصرين لموسى عليه السّلام كفروا بما آتاه الله تعالى من آيات بيّنات، وإنّ اليهود المعاصرين لمحمد ﷺ، الّذين ينصحون كفّار قريش بأن يطلبوا من محمّد ﷺ آيات محسوسةً على غرار آيات موسى عليه السّلام ، يكفرون بمحمّد ﷺ كما كفر آباؤهم بموسى عليه السّلام ، ويقولون عن كلٍّ من التّوراة الّتى أوحاها الله تعالى إلى موسى عليه السّلام، والقرآن الكريم الّذى أوحاه الله تعالى إلى محمّد ﷺ: إنّهما سحران تظاهرا وتعاونا وصدّق كلٌّ منهما الآخر، ويقولون إنّا بكلٍّ من هذين الكتابين كافرون، دون خوفٍ من الله تعالى، ولا حياء من عباد الله تعالى.

وكذلك يأمر الحقّ جلّ وعلا محمّداً ﷺ أن يقول لكفّار قريش: أُطلبوا من أصدقائكم كفّار يهود أن يأتوا بكتابٍ آخر من عند الله تعالى هو أهدى من التّوراة والقرآن الكريم كي يتّبع محمّدٌ ﷺ والمؤمنون هذا الكتاب. فإن لم يستجب لك يا محمّد كافرو قريشٍ ويهود فاعلم يا محمّد أنّهم إنّما يتّبعون أهواءهم وليس الحق. ولا أحد أضلّ ممّن اتّبع هواه ونفسه الأمّارة بالسّوء بغير هدىً من الله تعالى ولا كتابٍ منير. إنّ الله تعالى لا يوفّق الظّالمين المصّرين على الشّرك للاهتداء إلى الصّراط المستقيم والطّريق القويم.

إنّ الله سبحانه وتعالى قد وصّل لكفّار قريش القول الكريم والنّور المبين فيما أوحى إلى الرّسول العظيم محمّد بن عبد الله ﷺ من آي الذّكر الحكيم لعلّهم يتذكّرون ما يجب عليهم من شكرٍ لله تعالى على نعمه العظيمة بتوحيد الله تعالى، وينتفعون بما فيه من مواعظ تمتلىء بسببها القلوب بالخشوع، وتذرف من أجلها العيون الدّموع.

(٥)

« مِنْ أهل الكتاب مؤمنون يستحقّون الثّواب، ومن قوم المصطفى صلّى الله عليه وسلّم كافرون يستحقّون العقاب »

الآيات (٥٢-٦١)

ٱلَّذِينَ
ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِهِۦ هُم بِهِۦ يُؤْمِنُونَ ﴿٥٢﴾ وَإِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ
قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا بِهِۦٓ إِنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّنَآ إِنَّا كُنَّا مِن قَبْلِهِۦ مُسْلِمِينَ ﴿٥٣﴾
أُو۟لَٰٓئِكَ يُؤْتَوْنَ أَجْرَهُم مَّرَّتَيْنِ بِمَا صَبَرُوا۟ وَيَدْرَءُونَ بِٱلْحَسَنَةِ
ٱلسَّيِّئَةَ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴿٥٤﴾ وَإِذَا سَمِعُوا۟ ٱللَّغْوَ
أَعْرَضُوا۟ عَنْهُ وَقَالُوا۟ لَنَآ أَعْمَٰلُنَا وَلَكُمْ أَعْمَٰلُكُمْ سَلَٰمٌ عَلَيْكُمْ
لَا نَبْتَغِى ٱلْجَٰهِلِينَ ﴿٥٥﴾

الّذين آتيناهم الكتاب من قبله : من قبل هذا القرآن(١).

هم به يؤمنون: هم بهذا القرآن يؤمنون فيقرّون أنّه حقٌّ من عند الله(٢).

إنّا كنّا من قبله مسلمين : إنّا كنّا من قبل نزول هذا القرآن مسلمين. وذلك أنّهم كانوا مؤمنين بما جاءت به الأنبياء قبل مجيء نبيّنا محمّد ﷺ من الكتب، وفي كتبهم صفة محمّد ونعته فكانوا به وبمبعثه وبكتابه مصدّقين قبل نزول القرآن(٣).

بما صبروا : بصبرهم على الكتاب الأوّل واتّباعهم محمّداً ﷺ وصبرهم على ذلك(٤) ورد في الصّحيحين عن أبي موسى الأشعريّ رضي الله عنه أنّ رسول الله ﷺ قال : ثلاثةٌ يؤتون أجرهم مرّتين : رجلٌ من أهل الكتاب آمن بنبيّه

(١) تفسير الطّبري ٢٠/٥٦.

(٢) تفسير الطّبري ٢٠/٥٦.

(٣) تفسير الطّبري ٢٠/٥٦.

(٤) تفسير الطّبري ٢٠/٥٧.

ثمّ آمن بى. وعبدٌ مملوكٌ أدّى حقّ الله وحقّ مواليه. ورجلٌ كانت له أَمَةٌ فأدّبها فأحسن تأديبها ثمّ أعتقها فتزوّجها(١).

ويدرءون بالحسنة السّيّئة: ويدفعون بحسنات أفعالهم الّتي يفعلونها سيّئاتهم(٢) ولا يقابلون السّيّىء بمثله ولكن يعفون ويصفحون(٣).

وإذا سمعوا اللّغو : الباطل من القول(٤).

أعرضوا عنه : لم يصغوا إليه ولم يستمعوه(٥).

سلامٌ عليكم : أَمَنَةٌ لكم منّا أن نسابّكم أو تسمعوا منّا ما لا تحبّون(٦).

لا نبتغى الجاهلين : لا نريد محاورة أهل الجهل ومسابّتهم(٧) ولا نريد طريق الجاهلين ولا نحبّها(٨).

الّذين آتاهم الله تعالى الكتاب السّماويّ من اليهود والنّصارى من قبل القرآن الكريم هم بالقرآن الكريم يؤمنون لأنّ كلّ الكتب السّماوية يصدّق بعضها بعضاً، ولأنها جميعها موحىً بها من عند الله تعالى. وإذا يُتْلى القرآن الكريم عليهم يقولون آمنّا به وصدّقنا، إنّه الحقّ من ربّنا جلّ وعلا، إنّا كنّا من قبله موحّدين لله تعالى، مصدّقين بمحمّد بن عبد الله ﷺ الرّسول النّبيّ الأمّيّ الّذى نجده مكتوباً عندنا في التّوراة والإنجيل بنعته. إنّ أولئك الّذين اعتنقوا دين الإسلام ودخلوا في أمّة محمّد بن عبد الله ﷺ من اليهود والنّصارى، سوف يعطيهم ربّهم جلّ وعلا

---

(١) تفسير ابن كثير ٦/ ٢٥٤.

(٢) تفسير الطّبري ٢٠/ ٥٧

(٣) تفسير ابن كثير ٦/ ٢٥٤.

(٤) ا تفسير الطّبري ٢٠/ ٥٧

(٥) تفسير الطّبري ٢٠/ ٥٨

(٦) تفسير الطّبري ٢٠/ ٥٨

(٧) تفسير الطّبري ٢٠/ ٥٨

(٨) تفسير ابن كثير ٦/ ٢٥٤.

ثواب أعمالهم مرّتين اثنتين. مرّةً بسبب اتّباعهم رسولهم والكتاب الّذى أوحاه الله تعالى إليه من التّوراة والإنجيل، ومرّةً أخرى بسبب اتّباعهم محمّداً ﷺ والقرآن الكريم الّذى أوحاه الله تعالى إليه. إنّ الله تعالى سوف يعطيهم ثواب أعمالهم بسبب صبرهم على التّكاليف قبل إسلامهم وبعد إسلامهم.

وإنّ من نعوت هؤلاء الّذين دخلوا في دين الإسلام من أهل الكتاب أنّهم يدفعون السّيّئة بالحسنة، ويتبعون السّيّئة الحسنة كي تمحوها، ويدفعون سيّئات الآخرين نحوهم بالخلال التّى هي أحسن ولا يدفعون السّيّئة بالسّيّئة. وهذه الخصلة إنّما يلقّاها الّذين صبروا وذوو الحظوظ العظيمة من التّوفيق. وهم ممّا رزقهم الله تعالى ينفقون في هيئة الزّكاة والصّدقة على المستحقّين.

وتأكيداً لدفع السّيّئة بالحسنة هم إذا سمعوا الباطل من القول أعرضوا عنه ولم يخوضوا فيه ولم يسمعوه، وقالوا للسّفهاء الّذين عابوا عليهم إيمانهم وأخلاقهم لنا أعمالنا ونحن محاسبون عليها، ولكم أعمالكم وأنتم محاسبون عليها، سلامٌ عليكم منّا وأمنٌ وطمأنينة تسلم بها أعراضنا من الأذى، ونفوسنا من القذى، لا نبتغى الجاهلين بقولٍ يزيدهم هياجاً، ولا نريد السّفهاء بفعلٍ يزيدهم عناداً.

إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَٰكِنَّ
ٱللَّهَ يَهْدِي مَن يَشَآءُ ۚ وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ ﴿٥٦﴾

ثبت في الصّحيحين أنّ الآية الكريمة نزلت في أبى طالب عمّ رسول الله ﷺ، وقد كان يحوطه وينصره، ويقوم في صفّه ويحبّه حبّاً طبعيّاً لا شرعيّا(١) جاء في فتح البارى(٢) عن الزّهريّ قال أخبرني سعيد بن المسيّب عن أبيه(٣) قال: لمّا حضرت أبا طالب الوفاةُ جاءه رسول الله ﷺ فوجد عنده أبا جهل وعبد الله بن أبى أميّة بن المغيرة فقال: أي عمِّ، قل لا إله إلاّ الله كلمةً أحاجّ لك بها عند الله. فقال أبو جهل وعبد الله بن أبى أميّة: أترغب عن ملّة عبد المطّلب؟ فلم يزل رسول الله ﷺ يعرضها عليه ويعيدانه بتلك المقالة حتّى قال أبو طالب آخر ما كلّمهم: على ملّة عبد المطّلب، وأبى أن يقول لا إله إلاّ الله. قال: قال رسول الله ﷺ: لأستغفرنّ لك ما لم أُنْهَ عنك. فأنزل الله(٤): ﴿ما كان للنّبيّ والّذين آمنوا أن يستغفروا للمشركين ولو كانوا أولى قربى من بعد ما تبيّن لهم أنّهم أصحاب الجحيم﴾ وأنزل الله في أبى طالب فقال لرسول الله ﷺ: ﴿إنّك لا تهدى من أحببت ولكنّ الله يهدى من يشاء﴾.

ومعنى الآية الكريمة، والله تعالى أعلم، إنّك يا محمّد لا تهدى من أحببت هدايته ولو كان عمّك شقيق أبيك، ولكنّ الله تعالى يهدى من يشاء ويوفّق للرّشاد من يريد. وهو جلّ وعلا أعلم بالمهتدين المستحقّين للهداية الحريصين عليها. وقد

---

(١) انظر تفسير ابن كثير ٦/ ٢٥٥.

(٢) ٨/ ٥٠٦ حديث رقم ٤٧٧٢.

(٣) هو المسيّب بن حَزْن المخزومي رضي الله عنه. تفسير ابن كثير ٦/ ٢٥٦.

(٤) سورة التوبة ١١٣ وقد أكملنا الآية الكريمة.

قال عزّ من قائل[1] : ﴿والّذين جاهدوا فينا لنهدينّهم سبلنا. وإنّ الله لمع المحسنين﴾.

ومن البيّن أنّ الآية الكريمة تتحدّث عن هداية التّوفيق. وهذا النّوع من الهداية يختصّ به الله تعالى وحده لا شريك له. أمّا هداية الدّعاء والإرشاد والتّعريف بالطّريق إلى الله تعالى فإنّ عباد الله تعالى الصّالحين قد مكّنهم الله تعالى من هذا النّوع من الهداية[2].

وَقَالُوٓاْ إِن
نَّتَّبِعِ ٱلْهُدَىٰ مَعَكَ نُتَخَطَّفْ مِنْ أَرْضِنَآ ۚ أَوَلَمْ نُمَكِّن لَّهُمْ
حَرَمًا ءَامِنًا يُجْبَىٰٓ إِلَيْهِ ثَمَرَٰتُ كُلِّ شَىْءٍ رِّزْقًا مِّن لَّدُنَّا وَلَٰكِنَّ
أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٥٧﴾

نتخطّف من أرضنا : يتخطّفنا النّاس من أرضنا بإجماع جميعهم على خلافنا وحربنا[3].

يجبى إليه ثمرات كلّ شيء : يُجْمَع إليه ثمرات كلّ بلد، ويحمل إليه ثمرات الأرض[4].

رزقاً من لدنّا رزقاً رزقناهم من عندنا[5].

---

(١) سورة العنكبوت ٦٩.

(٢) انظر مفردات الرّاغب الأصفهاني : «هدى» ٢/ ٧٠٠.

(٣) تفسير الطّبري ٢٠/ ٦٠.

(٤) تفسير الطّبري ٢٠/ ٦٠.

(٥) تفسير الطّبري ٢٠/ ٦٠.

ولكنّ أكثرهم لا يعلمون : ولكنّ أكثر هؤلاء المشركين القائلين ذلك لا يعلمون أنّا نحن الّذين فعلنا كلّ ذلك(١).

وقال كفّار مكة للنّبيّ ﷺ إن نتّبع الهدى معك يا محمّد ونترك دين قومنا ونهجر عبادة الأصنام يتخطّفْنا النّاس من حولنا، ويمزّقونا كلّ ممزّق، ويرمونا عن قوسٍ واحدة، ونحن القوم الّذين ألِفْنا السّلم وشغلتنا التجارة. ولمّا كان القائلون لا يعلمون أنّ الله سبحانه وتعالى الّذى أمرهم باتّباع الهدى مع محمّد ﷺ هو الّذى أطعمهم من جوعٍ وآمنهم من خوف، فإنّ الآية الكريمة كي تعلّمهم ذلك وتنبّههم إلى حقّ الله تعالى عليهم تسأل في إنكار : ألسنا نحن الّذين مكّنّا لهم حرماً آمناً يُجْمَل إليه ثمرات كلّ البلاد، رزقاً من عندنا! ألسنا نحن الّذين آمنّاهم من خوفٍ وأطعمناهم من جوع. إنّ أكثر القوم لا يعلمون ذلك ويظنّون أنّ الأمن من الخوف والإطعام من الجوع بسبب نباهتهم واجتهادهم، ولهذا يجيء على لسانهم الخوف أن يستأصل النّاس شأفتهم ويبلوهم الجوع، إنْ هُمُ اتّبعوا محمّداً ﷺ.

إنّ عليهم أن يتّبعوا محمّداً ﷺ ففى الاتّباع عزّ الدّنيا والآخرة، وذلك قد كان.

---

(١) انظر تفسير الطّبري ٢٠/ ٦٠.

وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَرْيَةٍ
بَطِرَتْ مَعِيشَتَهَا ۖ فَتِلْكَ مَسَٰكِنُهُمْ لَمْ تُسْكَن مِّنۢ بَعْدِهِمْ
إِلَّا قَلِيلًا ۖ وَكُنَّا نَحْنُ ٱلْوَٰرِثِينَ ﴿٥٨﴾ وَمَا كَانَ رَبُّكَ مُهْلِكَ
ٱلْقُرَىٰ حَتَّىٰ يَبْعَثَ فِىٓ أُمِّهَا رَسُولًا يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِنَا ۚ وَمَا
كُنَّا مُهْلِكِى ٱلْقُرَىٰٓ إِلَّا وَأَهْلُهَا ظَٰلِمُونَ ﴿٥٩﴾

بطرت معيشتها : البَطَرُ دَهَشٌ يعترى الإنسان من سوء احتمال النّعمة وقلّة القيام بحقّها وصرفها إلى غير وجهها(١) أي أبطرتها معيشتها فبطرت وأشرت وطغت فكفرت ربّها. وقيل : ﴿بطرت معيشتها﴾ فجعل الفعل للقرية، وهو في الأصل للمعيشة(٢) كما يقال : أبطرك مالك فبطرته(٣) والمعيشة مفعولٌ به منصوب عامله بطرت بتضمينه معنى خسرت(٤).

وكنّا نحن الوارثين : ولم يكن لما خرّبنا من مساكنهم منهم وارث، وعادت كما كانت قبل سكناهم فيها، لا مالك لها إلا الله الّذي له ميراث السّماوات والأرض(٥).

وما كان ربّك : يا محمّد(٦).

حتّى يبعث في أمّها رسولاً : حتّى يبعث في مكّة رسولاً وهي أمّ القرى(٧).

---

(١) مفردات الرّاغب الأصفهاني : «بطر» ١/ ٦٤.

(٢) تفسير الطّبري ٢٠/ ٦٠.

(٣) تفسير الطّبري ٢٠/ ٦٠.

(٤) الجدول في إعراب القرآن وصرفه ١٠/ ٧٦.

(٥) تفسير الطّبري ٢٠/ ٦١.

(٦) تفسير الطّبري ٢٠/ ٦١.

(٧) تفسير الطّبري ٢٠/ ٦١.

ما أكثر القرى الّتي دمّرها الله تعالى تدميراً وأهلك أهلها بسبب تبديلهم نعمة الله تعالى كفراً، وعدم الشّكر لله تعالى على نعمه وآلائه، وإتيان الكبائر، وارتكاب الذّنوب، واحتقار الآخرين، وبخسهم حقوقهم. لقد بدّل الله تعالى أمن القوم خوفاً، وشبَعهم جوعا، واجتماعهم تفرّقاً، وصحّتَهم مرضا، وسعادتهم شقاءً. لقد اضطرّ بقايا القوم لأن يتركوا تلك القرى الّتي دمّرها الله تعالى، ولم يُسْكن من تلك القرى بإذن الله تعالى إلا القليل، وكان الله تعالى هو الوارث لتلك الأماكن.

وما كان ربّك يا محمّد مهلك أهل القرى حتّى يبعث في أمّها وعاصمتها وأهمّ القرى رسولاً يتلو عليهم آياتنا البيّنات وحججنا الواضحات. وهذا ما فعلناه مع سكّان مكّة، أمّ قرى المنطقة، بل أمّ قرى الدّنيا بأسرها، لأنّ محمّداً ﷺ رسولنا إلى النّاس كافّة. وما كنّا مهلكى القرى ومدمّريها إلاّ وأهلها ظالمون ومشركون على غرار كفّار أمّ القرى مكّة المكرّمة. إنّ على المشركين أن يتّعظوا بما حلّ بالمكذّبين السّابقين وإلاّ كان الأخذ شديداً، والعذاب أليماً.

وَمَآ أُوتِيتُم مِّن شَىْءٍ فَمَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَزِينَتُهَا ۚ وَمَا عِندَ ٱللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٦٠﴾ أَفَمَن وَعَدْنَٰهُ وَعْدًا حَسَنًا فَهُوَ لَٰقِيهِ كَمَن مَّتَّعْنَٰهُ مَتَٰعَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ثُمَّ هُوَ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ مِنَ ٱلْمُحْضَرِينَ ﴿٦١﴾

أفمن وعدناه وعداً حسناً فهو لاقيه : أفمن وعدناه من خلقنا على طاعته إيّانا الجنّة فآمن بما وعدناه وصدّق وأطاعنا فاستحقّ بطاعته إيّانا أن ننجز له

ما وعدناه فهو لاقٍ ما وُعد وصائرٌ إليه(١).

من المحضرين : من المشهدين عذاب الله وأليم عقابه(٢).

وما آتاكم الله تعالى أيّها النّاس من مالٍ وولدٍ وجاهٍ وسلطةٍ وما إلى ذلك من أنواع الخيرات فإنّما هو متاع الحياة الدّنيا الزّائل، وزينتها الفانية، وما عند الله تعالى من ثوابٍ جزيل على عمل الصّالحات، ومن نعيمٍ مقيمٍ في جناتٍ النّعيم خيرٌ من متاع الدّنيا الزّائل، وأبقى من زينتها الفانية.

أفلا تستعملون أيّها النّاس عقولكم استعمالاً صحيحاً كي تؤثروا الآجلة الباقية على العاجلة الزّائلة.

ويلاحظ التّوازن المعنويّ والصّوتيّ بين حظّ الفريقين والمقارنة المنطقيّة بين نصيب الفئتين . إنّهما يفضيان إلى تحكيم العقل وإيثار الآجلة.

إنّ حظّ الدّنيا القول : ﴿وما أوتيتم من شيء﴾.

وإنّ حظّ الآخرة القول : ﴿وما عند الله﴾.

وإنّ ذلك الشّيء في الدّنيا يوصف بصفتين في القول : ﴿فمتاع الحياة الدّنيا وزينتها﴾.

وإنّ ما عند الله تعالى في الآخرة يُنْعَت بنعتين في القول : ﴿خيرٌ وأبقى﴾.

ويأتي ثمرةً للمقارنة المنطقيّة السّؤال الإنكاري للّذين يعطّلون نعمة العقل: ﴿أفلا تعقلون﴾.

---

(١) تفسير الطّبري ٢٠/ ٦٢

(٢) تفسير الطّبري ٢٠/ ٦٢

ويتأكّد السّؤال الإنكّاري في القـول : ﴿أفلا تعقلون﴾ بالسّؤال الإنكاريّ في الآية الكريمة الأخرى. أفمن وعده الله تعالى على طاعته إيّاه وعداً حسناً وهو الجنّة فآمن وعمل صـالحاً فلاقى وعد الصّدق فـدخل الجنّة، كمن متّعه الله تعـالى متاع الحيـاة الدّنيا المحـدود الزّائل ثمّ هو يوم القـيامة من المحـضرين في الـعذاب! هل يسـتويان؟ هل يسـتوى النّعـيم المقيـم في الجنّة والعذاب الأليم في النّار. الجـواب مـعروف. لا يسـتويان. وممّا جـاء في هذا المعنى قـول الحقّ جلّ وعلا في سـورة الرّوم[1]: ﴿ويوم تقوم السّاعة يومئذٍ يتفـرّقون. فأمّا الّذين آمنوا وعملوا الصّالحات فهم في روضة يُحْبَرون. وأمّا الّذين كـفروا وكذّبوا بآياتنا ولقاء الآخرة فأولئك في العذاب مُحْضَرون﴾.

(١) الآيات ١٤-١٦.

(٦)

« عذاب المصرّين على الإعراض عن آيات الله تعالى وهلاكهم يوم القيامة وفوز المؤمنين »

الآيات (٦٢-٧٥)

وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَآءِيَ ٱلَّذِينَ
كُنتُمْ تَزْعُمُونَ ﴿٦٢﴾ قَالَ ٱلَّذِينَ حَقَّ عَلَيْهِمُ ٱلْقَوْلُ رَبَّنَا هَٰٓؤُلَآءِ
ٱلَّذِينَ أَغْوَيْنَآ أَغْوَيْنَٰهُمْ كَمَا غَوَيْنَا ۖ تَبَرَّأْنَآ إِلَيْكَ ۖ مَا كَانُوٓا۟ إِيَّانَا
يَعْبُدُونَ ﴿٦٣﴾ وَقِيلَ ٱدْعُوا۟ شُرَكَآءَكُمْ فَدَعَوْهُمْ فَلَمْ يَسْتَجِيبُوا۟
لَهُمْ وَرَأَوُا۟ ٱلْعَذَابَ ۚ لَوْ أَنَّهُمْ كَانُوا۟ يَهْتَدُونَ ﴿٦٤﴾

ويوم يناديهم : واذكر يوم يناديهم الله(١).

أين شركائي الّذين كنتم تزعمون : أنّهم لي في الدّنيا شركاء(٢).

قال الّذين حقّ عليهم القول : قال الّذين وجب عليهم غضب الله ولعنته(٣) وحقّ عليهم القول بدخول النّار(٤) من الشّياطين والمردة والدّعاة إلى الكفر(٥).

هؤلاء الّذين أغوينا : هؤلاء الّذين أغويناهم(٦).

تبرّأنا إليك ما كانوا إيّانا يعبدون : شهدوا عليهم أنّهم أغووهم فاتّبعوهم، ثمّ تبرّءوا من عبادتهم(٧).

لو أنّهم كانوا يهتدون : فودّوا حين رأوا العذاب لو أنّهم كانوا في الدّنيا مهتدين للحقّ(٨).

---

(١) الجلالين.

(٢) تفسير الطّبري ٢٠/ ٦٢.

(٣) تفسير الطّبري ٢٠/ ٦٢.

(٤) الجلالين.

(٥) تفسيرابن كثير ٦/ ٢٦٠.

(٦) الجلالين.

(٧) تفسيرابن كثير ٦/ ٢٦٠.

(٨) تفسير الطّبري ٢٠/ ٦٣.

واذكر يا محمد يوم ينادى الحقّ جلّ وعلا المشركين فيقول لهم في يوم القيامة المهيب، على سبيل التّقريع والتّأنيب : أين شركائي الّذين كنتم في الدّنيا تزعمون أنّهم أندادي فتشركونهم معي في العبادة، كي ينصروكم وينقذوكم من البلاء الّذي أنتم فيه. قال الّذين حقّ عليهم القول بدخول النّار من أئمّة الكفر، ووجب عليهم العذاب من رؤساء الضّلال، يا ربّنا، هؤلاء الّذين أغويناهم، أغويناهم وأضللناهم كما غوينا وضللنا عن سواء السّبيل. إنّا تبرّأنا إليك من عبادتهم إيّانا فإنّا لم ندعهم إلى ذلك. بل إنّهم ما كانوا يعبدوننا في الحياة الدّنيا!.

وهكذا يكون من الحقّ جلّ وعلا السّؤال عن التّوحيد، ويكون من أئمّة الكفر، دليلاً على الرّعب، الاضطراب في الموقف، والتّناقض في الجواب. إنّهم يعترفون بأنّهم أغووا أتباعهم، ثمّ يتبرّأون منهم ومن عبادتهم لهم، ثمّ ينكرون أنّ أتباعهم كانوا يعبدونهم. والحقيقة أنّهم أضلّوهم، وحثّوهم على عبادتهم، وكانوا سعداء بعبادتهم لهم. وهذا الاضطراب في الموقف والتناقض في الجواب يبيّنه مثل قول الحقّ جلّ وعلا في سورة البقرة(١): ﴿إذ تبرّأ الّذين اتّبعوا من الّذين اتّبعوا ورأوا العذاب وتقطّعت بهم الأسباب. وقال الّذين اتّبعوا لو أنّ لنا كرّةً فنتبرّأ منهم كما تبرّءوا منّا. كذلك يريهم الله أعمالهم حسراتٍ عليهم وما هم بخارجين من النّار﴾.

وقيل لأولئك المشركين ادعوا شركاءكم الّذين كنتم تعبدونهم من دون الله تعالى كي ينصروكم، فدعوهم فلم يستجيبوا لهم وخذلوهم، ووقتها تمنّى المشركون لو أنّهم كانوا مهتدين مؤمنين كي يثابوا في الآخرة.

---

(١) الآية ١٦٦و١٦٧.

وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ
فَيَقُولُ مَاذَآ أَجَبْتُمُ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٦٥﴾ فَعَمِيَتْ عَلَيْهِمُ ٱلْأَنۢبَآءُ
يَوْمَئِذٍ فَهُمْ لَا يَتَسَآءَلُونَ ﴿٦٦﴾ فَأَمَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ
صَٰلِحًا فَعَسَىٰٓ أَن يَكُونَ مِنَ ٱلْمُفْلِحِينَ ﴿٦٧﴾

ويوم يناديهم : واذكر يوم يناديهم(١).

فعميت عليهم الأنباء يومئذ : فخفيت عليهم الأخبار(٢) المنجية في الجواب(٣) فلم تكن لهم حجّةٌ يحتجّون بها ولا خبر يخبرون به ممّا تكون لهم به نجاةٌ ومخلص(٤).

فهم لا يتساءلون : فسكتوا فهم لا يتساءلون في حال سكوتهم(٥).

فعسى أن يكون من المفلحين : عسى من الله موجبة، فإنّ هذا واقعٌ بفضل الله ومنّه لا محالة(٦).

إذا كان السّؤال السّابق متعلّقاً بتوحيد الله تعالى فإنّ السّؤال هنا متعلّقٌ بالمرسلين. إنّ ربّ العزّة والجلال الّذى أحاط بكل شيءٍ علماً يسأل المشركين أيضاً : ماذا أجبتم رسلى الّذين أرسلتهم كي يخرجوكم من ظلمات الشّرك إلى نور التّوحيد؟ وإنّ المشركين الّذين يعلمون علم اليقين سوء أفعالهم وأقوالهم تغيب عنهم الأخبار المنجية لهم من العذاب، وتخفى عليهم الحجّة الّتى تكون رداً على الجواب، فيلوذون بالصّمت، ويلجأون إلى السّكوت، ولا ينبسون ببنت شفة،

---

(١) الجلالين.

(٢) تفسير الطّبري ٢٠/ ٦٣

(٣) الجلالين.

(٤) تفسير الطّبري ٢٠/ ٦٣

(٥) تفسير الطّبري ٢٠/ ٦٣

(٦) تفسير ابن كثير ٦/ ٢٦١.

ولا يسأل حميمٌ حميماً العون، لأنهم شركاء في التّكذيب، سواءٌ في السّوء.

فأمّا من تاب في الدنيا من الشّرك، وآمن بالله تعالى وأفرده بالعبادة، وعمل صالحاً بمقياس الإسلام، فكان عمله الصّالح، الّذى تأسّى فيه بسنّة المصطفى ﷺ المبيّنة للقرآن الكريم، قد أراد به وجه ربّه الأعلى وحده دون سواه، فإنّ ذلك الّذى تلك نعوته سوف يكون في الآخرة من الفائزين بإذن الله تعالى.

وقد سكت السّياق عن الفريق الآخر الكافر وعن كونه من الخاسرين لأنّ ذلك مفهومٌ ضمنا.

وَرَبُّكَ
يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ وَيَخْتَارُ ۗ مَا كَانَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ ۚ سُبْحَٰنَ
ٱللَّهِ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٦٨﴾ وَرَبُّكَ يَعْلَمُ مَا تُكِنُّ
صُدُورُهُمْ وَمَا يُعْلِنُونَ ﴿٦٩﴾ وَهُوَ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ لَهُ
ٱلْحَمْدُ فِى ٱلْأُولَىٰ وَٱلْءَاخِرَةِ ۖ وَلَهُ ٱلْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٧٠﴾

ويختار : ما يشاء(١).

ما كان لهم الخيرة : ما كان للمشركين الاختيار في شيء(٢) والخِيرة: كالعِنَبَة الاسم من مثل قولك: اختاره الله تعالى(٣) أي ليس لهم أن يختاروا على الله(٤).

له الحمد في الأولى: الدّنيا(٥).

والآخرة : الجنّة(٦).

(١) تفسير ابن كثير ٦/ ٢٦١ والجلالين ولسان العرب : «خير».

(٢) الجلالين.

(٣) انظر لسان العرب : «خير».

(٤) لسان العرب : «خير».

(٥) الجلالين.

(٦) الجلالين.

وربّك أيّها الرّسول الكريم والنّبيّ العظيم يخلق ما يشاء أن يخلقه، ويختار ما يشاء. ما كان لأولئك المشركين ولا لمعبوديهم شيءٌ من حقّ الاختيار، وليس لهم أن يختاروا على الله تعالى. إنّ لله تعالى وحده لا شريك له الخلق والأمر. تنزّه الله وتعالى علواً كبيراً عمّا جعله المشركون لله تعالى مِنْ شركاء وأنداد.

وربّك يا محمّد يعلم ما تخفيه صدور المشركين وتكنّه ضمائرهم من شرك وكفر، كما يعلم ما يعلنونه بألسنتهم وجوارحهم من ذلك.

والله تعالى هو الّذي لا إله إلاّ هو، والمحمود على كلّ حالٍ في الحياة الدّنيا وفي الآخرة، وله القضاء النّافذ والحكم الصّائب، وإليه يرجع الخلائق يوم القيامة لفصل الحساب والجزاء، الثّواب أو العقاب.

قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن جَعَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمُ ٱلَّيْلَ سَرْمَدًا إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ
مَنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ يَأْتِيكُم بِضِيَآءٍ ۖ أَفَلَا تَسْمَعُونَ ﴿٧١﴾
قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن جَعَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمُ ٱلنَّهَارَ سَرْمَدًا إِلَىٰ
يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ مَنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ يَأْتِيكُم بِلَيْلٍ تَسْكُنُونَ
فِيهِ ۖ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴿٧٢﴾ وَمِن رَّحْمَتِهِۦ جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ
وَٱلنَّهَارَ لِتَسْكُنُوا۟ فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٧٣﴾

سرمدا : دائماً لا ينقطع(١) والعرب تقول لكلّ ما كان متّصلاً لا ينقطع من رخاءٍ أو بلاءٍ أو نعمةٍ هو سرمد(٢).

قل يا محمّد للمشركين الّذين ما قَدَروا الله تعالى حقّ قدره ولم يقوموا بما يجب عليهم مِنْ شكرٍ لله تعالى على نعمه العظيمة وآلائه الجسيمة في أنفسهم

(١) تفسير الطّبري ٢٠/ ٦٥.

(٢) تفسير الطّبري ٢٠/ ٦٥.

وفيما سخّر لهم من نعمٍ وآلاء في السّماوات والأرض، أخبروني أيّها المشركون وأفيدوني أيّها النّاس: لو أنّ الله سبحانه وتعالى جعل عليكم اللّيل المظلم مستمراً لا ينقطع، متّصلاً لا نهار بعده إلى يوم القيامة: مَنْ إلهٌ زائفٌ ومَنْ إلهٌ غَيْرُ الله تعالى الحقّ يأتيكم بضياءٍ ونهارٍ تبتغون فيه من فضل الله تعالى. هلاّ سمعتم هذه الآيات سماع تدبّر فوعيتموها وآمنتم وأفردتم الله تعالى الحكيم القدير بالعبادة.

وممّا يلاحظ على الآية الكريمة الأولى أنّها تتحدّث عن اللّيل. وبذلك يتقدّم الحديث عن اللّيل باعتباره هو الأصل، تمشياً مع تقديم القرآن الكريم الحديث عن اللّيل باعتباره أصلاً وباعتبار النّهار طارئاً، لذا يتأخّر الحديث عن النّهار.

كما يلاحظ أنّ الإيماء إلى النّهار كان باستعمال لفظ الضّياء، وذلك في القول: ﴿مَنْ إلهٌ غير الله يأتيكم بضياء؟﴾ والضّياء والضّوء ما يصدر عن الشّمس المولّدة للطّاقة أو الضّوء. والشّمس نجمٌ متوهّجٌ يصدر منه الضّوء المتعلّق به الحرارة والدّفء. وتلك طبيعة كلّ نجم. والنّجم غير الكوكب. إنّ الكوكب غير مولّدٍ للطّاقة ومن ثمّ هو باردٌ وهو يعكس ضوء النّجم نوراً كالقمر الّذي يعكس ضوء الشّمس نوراً. فالكوكب إذن بمنزلة المرآة الّتى تعكس ضوء الشّمس مثلاً وتجعله نوراً بارداً. وإنّ الآية الكريمة باستعمالها لفظة: «ضياء» تومىء إلى الشّمس الّتى تملأ الكون ضياءً وحرارةً ودفئاً، وتحمل الكائنات على العمل والحصول على لقمة العيش وعلى الابتغاء من فضل الله تعالى.

كما يلاحظ مجيء جملة: ﴿يأتيكم﴾ في القول: ﴿مَنْ إلهٌ غير الله يأتيكم بضياء﴾ والمعروف أنّ جملة: «أتى» لا تستعمل في القرآن الكريم إلاّ دليلاً على البعد المكاني أو الزّمانيّ أو المعنويّ، بعكس جملة: «جاء» الّتى تدلّ على القرب في كلّ ذلك. إنّ المخلوقات مجتمعةً لا تستطيع أن تأتي بشيءٍ من الضّياء، وإنّ الله تعالى هو وحده لا شريك له الّذي يستطيع أن يأتي به. وهكذا تدلّ جملة: ﴿يأتيكم﴾ على البعدين المكانيّ والمعنويّ معاً.

كما يلاحظ أنّ التّذييل يتعامل مع حاسّة السّمع في القول: ﴿أفلا تسمعون﴾ لأنّ حاسّة السّمع هي التي تعمل في الظّلام، ولأنّ صدر الآية الكريمة يتحدث عن

اللّيل السّرمديّ والظّلام المطبق. وهكذا يكون انسجامٌ وتناغمٌ بين صدر الآية الكريمة وعجزها. وكما يومىء التّذييل ﴿أفلا تسمعون﴾ إلى السّماع المجرّد ابتداءً، كما تبيّنّا من عمل حاسّة السّمع في الظّلام، يومىء التّذييل كذلك إلى النّوع الآخر من السّماع والمرتبة العليا منه، بأن يكون السّماع واعياً، كي يدرك النّاس الحكمة من اختلاف اللّيل والنّهار، ويَقْدروا هذه النّعمة حقّ قدرها، ويقوموا بما يجب عليهم من شكرٍ لله تعالى المنعم المتفضّل، وذلك بإفراده عزّ وجلّ بالعبادة.

وإلى نعمة اختلاف اللّيل والنّهار والحكمة منها أشار مثل قول الحقّ جلّ وعلا في سورة الفرقان(١): ﴿وهو الّذى جعل اللّيل والنّهار خلْفةً لمن أراد أن يذّكّر أو أراد شكورا﴾.

وإذا كانت الآية الكريمة الأولى تتحدّث عن اللّيل الّذي ليس سرمداً فإنّ الآية الكريمة الثّانية تتحدّث عن النّهار الّذى ليس سرمداً كذلك. قل يا محمّد للمشركين كذلك: أخبروني أيّها المشركون وأفيدوني أيّها النّاس: لو أنّ الله سبحانه وتعالى جعل عليكم النّهار المضيء مستمراً لا ينقطع، متصلاً لا ليل بعده إلى يوم القيامة، مَنْ إلهٌ زائفٌ ومَنْ إلهٌ غير الله تعالى الحقّ يأتيكم بليل تسكنون فيه بعد الحركة نهاراً، وترتاحون فيه بعد التّعب. هلاّ تدبّرتم هذه الآيات البيّنات بنور البصيرة فوعيتموها وآمنتم وأفردتم الله تعالى بالعبادة.

وممّا يلاحظ على الآية الكريمة أنّها تتحدّث عن النّهار. وبذلك يتأخّر الحديث عن النّهار باعتباره طارئاً ومتولّداً عن ضوء الشّمس، وقد تقدّم الحديث عن اللّيل في الآية الكريمة السّابقة باعتباره أصلاً. وهكذا تتحدّث الآية الكريمة الأولى عن اللّيل، وتتحدّث الآية الكريمة الثّانية عن النّهار. وقد أومأت الآية الكريمة الأولى إلى النّهار بالنّصّ على أهمّ متعلّقاته وهو الضّياء، لأنّ الانتفاع من النّهار يتعلّق بالضّياء المتولّد عن الشّمس المرتبط به الحرارة والدّفء. وقد تحدّثت الآية الكريمة عن اللّيل من زاوية الغاية منه، وهو أن يكون سكناً للخلائق. وهذه الغاية لم تنصّ عليها الآية الكريمة الأولى، كما أنّ الآية الكريمة الثّانية لم تنصّ على الضّياء

---

(١) الآية ٦٢

لمرتبط به الغاية من النّهار، إنّما نصّت عليه الآية الكريمة الأولى. وهكذا يكون تكاملٌ بين المعاني في الآيتين الكريمتين، وإضافةُ الجديد من المعاني دائماً.

كما يلاحظ مجيء جملة: ﴿يأتيكم﴾ في هذه الآية الكريمة الثّانية كذلك. وما قيل عنها في الآية الكريمة الأولى يقال هنا. إنّ الله تعالى وحده لا شريك له هو الّذي يستطيع أن يأتي بالّليل كما يأتي هو وحده دون سواه بالنّهار.

كما يلاحظ أنّ التّذييل يتعامل مع حاسّة البصر في القول: ﴿أفلا تبصرون﴾ لأنّ حاسّة البصر تعمل في النّهار وتتعامل مع النّور أو الضّياء، ولأنّ صدر الآية الكريمة يتحدّث عن النّهار السّرمديّ المرتبط به الضّياء الدّائم. وهكذا يكون انسجامٌ وتناغمٌ بين صدر الآية الكريمة وعجزها. وكما يومىء التّذييل: ﴿أفلا تبصرون﴾ إلى الإبصار بالعين المجرّدة ابتداءً، كما تبيّنا من عمل حاسّة البصر في الضّوء والنّور، يومىء التّذييل كذلك إلى النّوع الآخر من الإبصار والمرتبة العليا منه، وهو الإبصار بعين القلب المؤمن، ونور البصيرة المستمدّة قوّتها من هدي القرآن الكريم وسنّة المصطفى ﷺ. إنّ القلب حينما يكون مبصراً والبصيرة حينما تكون نيّرةً يدرك صاحبهما الحكمة من اختلاف الّليل والنّهار فيتذكّر ويذكر الله تعالى ويشكر له نعمه العظيمة وآلاءه الجسيمة.

وثمّة ملاحظةٌ يمكن أن نتبيّنها حينما نقارن بين التّذييلين في الآيتين الكريمتين المتعلّقتين بالّليل الّذى قلنا إنّه الأصل وتتحدّث عنه الآية الكريمة الأولى في صدرها وعجزها، وبالنهّار الّذى قلنا إنّه تبعٌ وتتحدّث عنه الآية الكريمة الثّانية في صدرها وعجزها. إنّ هذه الملاحظة متعلّقة بكون الّليل هو الأصل وبكون النّهار هو الطّارىء، وهي أنّ حاسّة السّمع هي الأصل كذلك وهي المتقدّمة، وقد جاءت الإشارة إليها في التّذييل أوّلاً، وأنّ حاسّة البصر هي المتأخّرة عن حاسّة السّمع، لأنّ حاسّة السّمع تعمل في النّور والظلام معاً، في حين لا تعمل حاسّة البصر إلاّ مع النّور أو الضّوء، وقد جاءت الإشارة إلى هذه الحاسّة المتأخّرة في التّذييل أخيراً. جاء في الآية الكريمة الأولى الّتى تتحدّث عن الّليل التّذييل: ﴿أفلا تسمعون﴾ وجاء في الآية الكريمة الثّانية الّتى تتحدّث عن النّهار التّذييل: ﴿أفلا تبصرون﴾.